المسرح العربي والسينما

بقلم الدكتور محمد يوسف نجم

المسرح وفنه مستحضر دخيل عرفناه في نهضتنا الثقافية الحديثة على أثر احتكاكنا بالحضارة الغربية. وظهر في المراكز الرئيسية لهذه النهضة ـ اعني لبنان وسورية ومصر ـ في اوقات تكاد تكون متقاربة. عرفه لبنان قبل أي قطر عربي اخر حين شمر احد ابناء الاسز المرموقة فيه، اعني مارون النقاش، عن ساعد الجد، واقتبس اساليبه ووسائله كما خبرها في رحلاته الى الغرب، وبذر بذورها في لبنان فأزاح الستار عن اول مسرحية عربية، في تاريخنا الفني سنة ١٨٤٧. واستمر في نشاطه هذا يصلح من اساليبه ويحسن في وسائله حتى احتضر سنة ١٨٥٥، فتوقفت الدفقة الفنية الاولى في لبنان وتسرب منها قطرات الى اخيه وابن اخيه، تحولت بعد عقدين من السنين الى نهر هادر يجري على ارض الكنانة الخصبة المعطاء، فينثر الورود والازهار على ضفتي الوادي، فترة تمطت وامتدت وما نزال نتفيأ ظلالها حتى يومنا هذا. وفي أزقة سورية القرن التاسع عشر، وفي احد خاناتها قام شيخ معمم، تعشق الموسيقى والغناء منذ الصغر، وسمع بالتشخيص والمشخصين، في بيروت، على مرمى حجر كما يقولون، فتقدم سنة ١٨٦٥ ينسف التقاليد ويجتثها من اصولها وينشيء للدمشقيين مسرحا عربيا ناصعا يشاهدون على خشبته قصص الف ليلة وليلة وعنترة وهارون الرشيد وابي زيد، يقصها عليهم احياء من بني جنسهم، باشاراتهم وحركاتهم وافعالهم، لا بأقوالهم فقط كما كان يفعل الشاعر الشعبي. وفي مصر، قام يهودي متمصر هو يعقوب صنوع شملته حركة جمال الدين الافغاني فيمن شملت من المكافحين على اختلاف مللهم ونحلهم، يعرض على المصريين مخازي اسماعيل ومساوىء الحكم المطلق ومضار العادات الفاسدة والاخلاق الرجعية الضيقة. واستمر صنوع في حمل هذه الرسالة التي اوحى بها جمال الدين، منذ سنة ١٨٧٠ حتى اغلق اسماعيل مسرحه وشرده سنة ١٨٧٢.

وفي مصر، التقى فرع من لبنان، أمها سنة ١٨٧٦ وفرع من دمشق امها سنة ١٨٨٤، فكونا ذلك النهر العظيم الذي اخرج لنا اعظم الفرق شهرة ونشاطا كفرقة الخياط والقرداحي واسكندر فرح وسلامة حجازي وسواهم. مضى طور النشأة، وطور المدرسة اللبنانية السورية المتمصرة، وتمخض النشاط التمثيلي في القرن التاسع عشر عن شيخ الممثلين واستاذهم الاعظم جورج ابيض. حمل ابيض الرسالة منذ سنة ١٩١٢ وتخرج على يديه كبار ممثلي الجيل السابق وجيلنا هذا. تلمذوا عليه ممثلين في فرقته او مشاهدين لمسرحيته او متأثرين بروحه روح الفنان الاصيل الذي اوتي الموهبة وتعهدها بالصقل والدراسة في فرنسا، فكان اول ممثل عربي اغترف الفن من منابعه الصافية. ولذا يحق لمؤرخ المسرح العربي ان يعد جورج ابيض راس هذه الحقبة المسرحية التي انتجت عبد الرحمن رشدي ومحمد تيمور ويوسف وهبي وفاطمة رشدي وروز اليوسف والفرقة القومية وفرقة المسرح الحديث، والمسرح القومي.

كان المسرح في طوره الاول حتى سنة ١٩١٢ وفي طوره الثاني حتى مطلع العقد الرابع من هذا القرن التسلية الوحيدة التي يرتادها طلاب المتعة واللهو في مصر. ولذا كان ناشطا مزدهرا من الناحية المادية، وقد شجع هذا الازدهار أصحابه وذويه على الانفاق عليه بسخاء. فالشيخ سلامه حجازي يستحضر الفنيين من اوروبة ليشرفوا على اعداد المسرح واخراج المسرحيات، والطامحون من ذوي اليسار، كيوسف وهبي، يسافرون الى اوروبة لتلقي اصول هذا الفن، كما فعل استاذهم الاكبر جورج ابيض، والفرق الجديدة، والوجوه الجديدة تظهر في كل يوم. والمؤلف يتقاضى على مسرحيته مائة جنيه او مائتين ـ هذا قبل ثلث قرن واكثر ـ والمسارح تشرق بالاضاءة الحديثة، الاضاءة الكهربائية. والصحف والمجلات تنشط في النقد والاعلان والامراء والوزراء يحرصون على حضور حفلات الافتتاح. ذاك عهد مضى، وتبعه عهد اسود، زاحمت فيه السينما المسرح بالمناكب، واجلته عن مكانته الممتازة في النفوس، مكانة الابن الوحيد في نفوس ذويه. فاستطاعت ان تزعزع اركانه بتلك الاشباح تحركها على الستارة الفضية صامته في اول الامر، مغنية مازحة ضاحكة عندما اخذ الصوت سبيله الى كواليس السينما. فماذا حدث.

بدأت الازمات والنكسات. يوسف وهبي يرهن مسرحه واثاث مسرحه وفرقة فاطمة رشدي تمثل بستائر ممزقة، ترى منها نجوم السماء، قبل ان ترى امامها نجوم المسرح، والحكومة تهب لانقاذ المسرح، فتؤلف الفرقة القومية سنة ١٩٣٦، فتزيد الطين بلة وتكون ضغثا على ابالة. تضم فلول الفرق القديمة، وتقنع الفنيين والممثلين بهذه الوظيفة الحكومية التي كانت الاولى من نوعها في مصر. ويهب النقاد لاصلاح المسرح، ويلفتون النظر الى روائع المسرح العالمي فتترجم بلغة جافة تقرع اذان القوم بمثل الجنادل، لتنقل اليها احداثا مستهجنة وشخصيات غريبة، وعواطف مستوردة، فينفر الجمهور، وان كان مع وجود السينما لا يحتاج الى ما ينفره من المسرح، وينفض السامر وتطفأ الانوار في كل ليلة على خيبة تتلوها خيبة، واخفاق يجر وراءه اخفاقا. وتتكرر محاولات الحكومة للاصلاح ويتكرر الاخفاق حتى كانت الثورة.

كانت الثورة ثورة على كل قديم مهتريء في الحياة المصرية، سياستها واقتصادها واجتماعها وادبها وفنها. وتبذل الجهود للنهوض بالمسرح، على ان هذا الداء العياء،

والمرض العضال لا يكفي للبرء منه ثماني سنوات ، بل يحتاج الى جيل جديد ، له مثل جديدة ، ومعتقدات جديدة، هو جيل ابناء الثورة . ونحن على الرغم من تفاؤلنا بما وصل اليه المسرح المصري بعد الثورة من تقدم في ادبه وفنه، نرى ان هذه الفترة هي فترة انتقال في الفن المسرحي كما هي في السياسة وما يتبعها . وعندما ننتهي من عقابيل الملكية وننعم في صحة الجمهورية سيكون للمسرح شأن آخر .

اما السينما ، خصم المسرح الذي سلبه المقعد الذي كان يتربع عليه جمهوره هانئا مسرورا ، فقد استطاعت بمقوماتها المادية وبمحتواها المتنوع المسلي ان تثب وثبات سريعة ، على انها ما تزال تعاني من القصص الهزيلة والتمثيل المفتعل المتكلف ومن الغناء والرقص والنكتة التي يزج بها في المشاهد مهما كانت نابية في مكانها قلقة في موضوعها . وقد بلغ معدل النتاج السينمائي في مصر في السنوات الست الاخيرة سبعين فيلما . وهذا عدد ضخم لو استطعنا استغلاله فنيا وقوميا لاتي اطيب الثمار ولكن كيف ؟

تتلخص ازمة المسرح والسينما في العالم العربي اليوم في نواحي الضعف التالية :

١ ــ ضعف القصة بوجه عام واعتماد اكثر المؤلفين على القصص الاجنبي يمسخونه ويشوهونه لكي يرضي ذوق الجمهور . وفي اكثر الاحيان لا يتنازل المؤلف الى ان يدلنا على مصدر سرقته .

٢ ــ ضعف الممثلين بشكل عام ، وتمسكهم بطريقة الاداء الرومنتيكي القائم على الافتعال والتكلف وكثرة الاشارات والصراخ والعويل والمبالغة في العاطفية . اضف الى ذلك قلة الوجوه الجديدة ، وجعل المحك في اختيارها جمال الهيئة والرشاقة وجمال الصوت لا الموهبة والقدرة على التعبير .

٣ ــ عدم التخصص في الفنون الاعدادية . فالممثل قد يصبح مخرجا وكذلك المصور . وهنالك من يقوم بالتأليف والاخراج والتمثيل والتلحين ــ احيانا .

٤ ــ ضعف الاستعدادات في المسارح وفي استديوهات السينما . اكثر المناظر بالية ، تستعمل لاكثر المسرحيات ، مهما اختلف موضوعها وتاريخ حوادثها . وادوات تسجيل الاصوات والتصوير من النوع القديم الذي لفظته السينما في امريكا وفي الغرب .

٥ ــ نوعية الجمهور : والجمهور هو مصب التهم عند النقاد والفنيين كلما اخفق مؤلف او مخرج او ممثل اتهم الجمهور . وانا على مثل اليقين ان جمهورنا العربي في غالبيته ، لا يتجافى عن العمل الفني الصحيح بل انه يتقبله ويقبل عليه اذا كان صادقا في تصويره للحياة، امينا فيما يكشف عنه من مشاعر ، انسانيا فيما يعالجه من مشكلات ، رائعا فيما يصطنعه من اسلوب للتعبير عن ذلك كله . اما الكذب والتزييف والافتعال والالحاح على الاعصاب والعواطف بالمواعظ الصريحة والحوادث العنيفة ، والالتواء في عرض ذلك كله ، فمن شأنه ان ينفر ذوي الفطر السليمة ، بل اصحاب الاذواق المثقفة الصقيلة. فعلينا اذن ان نتبين حقيقة هذا الفن الذي نقدمه للجمهور وطبيعة الحواجز التي تقف بيننا وبينه كحواجز اللغة والضرب في افاق الرمز والتعمية ورفع اسعار الدخول. وعلينا قبل ان نتهم الجمهور ان نعده للارتفاع والنهوض بتدريب ذوقه ، وان ننشئه تنشأة فنية صحيحة ، تأخذه بالرفق واللين والتدرج حتى تستحصد ملكاته وتهذب غرائزه فيصبح اقدر على تذوق الفن الرفيع وتتبع نهضته صعدا .

هذه هي العلل ، وقد بسطتها الى حد يدعو الى التفاؤل ، فما هو العلاج ؟ العلاج فيما يختص بالقصة المسرحية او السينمائية، هي نزول كبار الكتاب الى الميدان، وقد حدث ذلك في المسرح قبل ان يحدث في السينما، على ان الاتجاه الجديد في السينما المصرية يبشر بالخير فيما يختص بالقصة ، فقد عالجها كبار الكتاب امثال طه حسين ونجيب محفوظ فنجحت نجاحا كبيرا واستبان لنقاد الفن ان القصة القوية ترفع العمل السينمائي كله، فالاثر الجليل يقتضي جهودا جليلة لتنهض به.

وفيما يختص بالممثل ، علينا ان نتعهد المواهب الجديدة بالصقل والتدريب والتثقيف . وان تجري على ممثلي المسرح خاصة مكافآت ضخمة تصرفهم عن التشوق الدائم الى العمل في السينما ، فيتركون المسرح كلما لوح لهم مخرج سينمائي بعقد على تمثيل فيلم .

اما المخرجون ، والفنيون ، فيجب ان نهيىء لهم وسائل الدرس والثقافة ، ونرسلهم في بعثات الى الخارج ونتيح لهم العمل في اكبر المسارح والاستديوهات العالمية، ليطلعوا على احدث الاساليب في الاخراج والتنفيذ.

اما المسارح فيجب ان يزاد عددها وان تعمم في القرى والاقاليم والمدارس . وان تخفض رسوم دخولها، وكذلك الامر في السينما . اذ كيف نطمع في اداء رسالة فنية او ثقافية او قومية الى انسان ، ونطلب منه ان يضحي بثمن قوت يومه في سبيل هذه الثقافة . اما في البلاد التي لا توجد فيها مسارح كلبنان ، فعلى الحكومة ان تبادر الى سد هذه الثغرة الاساسية في النهضة وذلك بانشاء المسارح الرسمية في المدن والقرى .

اما الجمهور ، فعفا الله عما سلف ، ولنبدأ من جديد لنبدأ بالمدارس فنجعل الفن ، بجميع فروعه جزءا اساسيا من التعليم . وان نشجع التمثيل المدرسي وندرس الاساليب التي تتبعها المدارس الرسمية والخاصة في امريكا واوروبا في نشر الوعي الفني والتمثيلي بين تلاميذها .

واخيرا على الحكومات ان تعتبر المسرح عملية لا تأتي بربح الى حين حتى نربي اذواق الجمهور على الاستمتاع به وتقديره فيصبح ارتياد المسارح عادة ثانية لهم .

هذه صورة قاتمة ، قد توحي للبعض بان المريض قد اشفى ، ولا امل في شفائه . ولكنني ارى الامر من وجه

ــ البقية على الصفحة ٧٣ ــ

اطلبوا كتب دار الاداب
في المغرب
من
المركز الثقافي العربي
بالدار البيضاء ــ ٤٢ ــ ٤٤ الشارع الملكي بالاحباس
تلفون ٥١ ــ ٢٧٨

المسرح العربي والسينما

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٢ ـ

اخر اذ اعتبر معضلة المسرح والسينما جزءا من معضلة الحياة العربية حياة كانت مفككة هزيلة تنهشها اظافر الاستعمار والفرقة والاستغلال والرجعية المتاجرة . فلا عجب اذن ان تكون صورة هذه الحياة ، والتعبير الفني عنها ، على ما بينا . اما صورة الحاضر فانها تبدو لي من وراء الافق براقة لامعة تبشر بالخير العميم ، فمصر الثورة تنهض في السياسة والاقتصاد والاجتماع وذلك يستتبع نهضة في الاداب والفنون . والجمهورية العربية تظهر الى الوجود مجسمة امال العرب مكملة ما كان لهم من مجد انتهى بانقضاء العصر الاموي ، تحدوها الروح الفدائية المتوثبة وتهدي خطاها القيادة القوية الرشيدة ، فالتفاعل لا بد حادث والتغير لا بد واقع ، وانا لمنتظرون .

وبعد ، فقد تحدثنا عن الاداة وعيوبها وعن خير الطرق لشحذها واعدادها فكيف نوجه هذه الاداة لخدمة المجتمع القومي الذي نعيش فيه .

أجدني هنا في موقف حرج . فنقادنا اليوم ينادون بالالتزام في الادب والفن ، اي توجيههما لخدمة المجتمع والقضايا القومية بطريقة مباشرة . وليسمح لي السادة النقاد ان اخالفهم في فهمي لمعنى الالتزام . وقبل ان يسارع البعض الى رميي بالتهم المختلفة ، ليس اقلها الخروج عن اجماع القوم احب ان ابادر الى طرح رأيي في هذا الموضوع:

اولا ـ ان فكرة الفن للفن التي يهاجمها نقادنا اليوم، لها في تاريخ النقد ظروف وملابسات ... فقد كانت رد فعل لميوعة الحركة الرومنطيقية وتحولها الى غناء محموم عن الذات . فانبرى ادباء البرناس حينئذ يدافعون عن صفاء الادب ونصاعته ، فاهابوا بالادباء ان يعودوا الى الصورة الشعرية المتقنة ، ونادوا ان الفن للفن ، وقالوا ليس الفن للتغني بالذات والانطواء على النفس بل هو للفن اي للصورة الفنية .

ثانيا ـ أرى ان الاديب ملتزم بطبيعة وجوده ، فهو انسان حي يعيش في مجتمع امده ويمده دائما باسباب التأثر والانفعال . وهو بحسه الصادق العميق وبموهبته الفذة في التعبير ، يعكس لنا صورة احاسيسه في نفسه، هذه النفس التي تقع دوما تحت التأثير المتلاحق الملح للبيئة اي المجتمع ومؤسساته ومشكلاته . فكل اديب ملتزم بالقوة . وعمل الظروف الطارئة والمؤثرات التي تتعاوده من الخارج ،والثورات الاجتماعية والهزات السياسية ان تخرج بهذه « القوة » الى حيز « الفعل » .

ثالثا ـ ليس هنالك اديب برجوازي واديب برجعاجي او اديب رجعي واديب متحرر او اديب قومي او اديب اقليمي . هنالك اديب صادق وحسب . ومعنى ذلك ان هنالك موهبة قوية واحساسا عميقا وقدرة فذة على التعبير بصدق واخلاص . وهذه الصفات او هذه القوى هي التي تؤهل صاحبها لحمل لقب الاديب . ومعنى ذلك انه ليس عندنا سوى تصنيفين لحملة الاقلام ـ اديب ، ولا اديب . فالاديب ملتزم بطبعه لانه يحس بالحياة على نحو عميق ، اعمق من احساس الشخص العادي ، ويعبر عن هذا الاحساس بنحو دقيق صادق ملهم مؤثر . وهذان العاملان : العمق في الاحساس والصدق في التعبير، هما خط الالتزام الادبي ، اذ بهما تتسع امداء حياة القارىء والمتذوق ، وتتضاعف اختباراته . وحسب الادب هذه الرسالة الشريفة يؤديها بامانة واخلاص . لان اتساع مدى حياة القارىء يعينه على ان يفهم الحياة فهما صحيحا صادقا مهذبا . ومن يفهم الحياة على وجهها الصحيح ، يعمل لاستبقائها في احسن حالاتها . واستبقاء الحياة في احسن حالاتها يعني اسعاد النفس واسعاد الغير وخدمة الانسان ، في اعمق معاني انسانيته ، سواء اكان هذا مواطنا ترتبط مصلحتي المباشرة السريعة بمصلحته ام اي انسان اخر تربطني به وشيجة الانسانية. فالاديب الرصين الصادق هو فهم جديد لمعنى الحياة ، وما اكثر معانيها ، فهو اذن سلاح جديد في يد الانسان يساعده على الاحتفاظ بحياته وحياة غيره في احسن صورها ، ويقل به اخطر سلاح مهما افتن دعاة الشر في اختراع اسلحة الفتك والتدمير . هي سلاح السلام وناصره حين تعز اسلحة السلام ويقل ناصروه . الا فلنعمل جميعا متعاونين لخلق الاديب الصادق وتوفير اسباب الاعداد والراحة له ، ولنتركه بعد ذلك يكتب بما يوحيه اليه احساسه الصادق العميق بالحياة فانه لاشك مؤد هذه الخدمة الجلى التي ننتظرها منه ، مادام حي الضمير متيقظ الوجدان يعيش بين احياء شرفاء ، ويستمد وحيه من حياة كريمة خيرة . والويل له بعد ذلك ان انحرف، فان الف سلاح وسلاحا ستشهر في وجهه ، ليس اقلها سلاح محاسبة الضمير . وهل سلاح اقوى من الضمير ؟

محمد يوسف نجم

في الاسواق

تأملات وجودية

بقلم الدكتور

زكريا ابراهيم

■ لون جديد لم يعرفه الادب العربي من قبل

■ خواطر ويوميات تشتعل بالفكر والحياة وتتناول مشاكل الوجود والموت والعدم والظلام ، وتذكرنا بيوميات كيركجورد وغابرييل مارسيل .

■ مذكرات حية تلوح كلمع من النجوم وسط حلكة الجفاف الاكاديمي .

■ كتاب هام يعيش قضية « الفكر » وسوف يكون بدء سير في طريق جديد من طرق التعبير بالعربية

الثمن ٢٥٠ ق.ل

منشورات دار الاداب